أخبار الدولة المرينية في رحلة ابن بطوطة خلال القرن الثامن الهجري "دراسة تاريخية"

رمضان المختار الجامع
كلية التربية ال – جامعة الزاوية

مقدمة:

تُعد رحلة ابن بطوطة الموسومة بـ(تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) والتي تُعرف على الاختصار باسم (رحلة ابن بطوطة) من أشهر الرحلات المغاربية والعربية، وقد حظيت هذه الرحلة بذيوع الصيت، ونالت مكانة كبيرة على الصعيد المحلي والعالمي؛ حيث تُرجمت إلى عدة لغات أجنبية، وتعبر هذه الرحلة من أشهر الرحلات وأطولها، والتي دامت ما يقرب من الثلاثين عاماً، دَوَنَ فيها ابن بطوطة جُل ما شاهدهُ وعاينه، وما لاحظه وعايشه، سواء فيما يتعلق بالتقاليد والعادات، والبناء والعمران، أو فيما يتعلق بطرق العيش وحياة التجمعات البشرية، ومن أحداثٍ من تاريخها.

وقد تناول الكثير من الكُتاب والباحثين رحلة ابن بطوطة بالدراسة والاستقصاء، وقام بعض المستشرقين بنشر أجزاء منها، وترجمتها إلى اللغات الأوروبية، ونشر أبحاثاً مستفيضة عنها، ولم يُقصر الباحثون العرب الذين تناولوا هذه الرحلة من جوانب مختلفة، ولا سيما من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والأدبية، والجغرافية والمعمارية وغيرها.

كذلك جرت دراسة عدد كبير من الأقاليم والأقطار التي تمت الرحلة إليها من خلال معطيات هذه الرحلة، وما قدمه ابن بطوطة في هذا المجال.

ولقد لفتت انتباهي قلة تركيز الباحثين على منطقة الغرب الإسلامي من خلال الرحلة، وأعني به بلاد المغرب على وجه العموم، والدولة المرينية على وجه الخصوص، حيث قدم لنا ابن بطوطة معلومات قيمة عن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحضارية، وهي معلومات جديرة بالاهتمام والتوقف عندها، ودراستها دراسة تاريخية متأنية متفحصة؛ ولهذا فقد تَحركتُ في لهفة الباحث والمؤرخ لوضع مادة ابن بطوطة بشأن الدولة المرينية موضع البحث والتحليل والاستقراء وتجميع منثورها في بحث علمي عن تاريخ الدولة المرينية خلال القرن الثامن الهجري من خلال رحلة ابن بطوطة، حيث تشكل رواية ابن بطوطة شاهد عيان على العصر الذي عاش فيه – القرن الثامن الهجري – لكثير من الأحداث التي غفلت العديد من المصادر التاريخية عن ذكرها.

أولاً- معطيات كتابة الرحـــلـة:

تحدث كثير من الباحثين عن حياة ابن بطوطة وأهمية رحلاته التي أشبعها الباحثون دراسة واستقصاءً، وسوف لن اتحدث في هذا البحث عنها، ويمكن أن أُحيل القارئ فقط إلى بعض المراجع الأساسية، مثل ما كتبه المستشرق الروسي كراتشكوفسكي[1]، ونقولا زيادة[2]، وحسين مؤنس[3]، ومحمود الشرقاوي[4]، وشاكر مصباك[5]، وعبدالله كنون[6]، وعبد الواحد دنون[7]، ومصطفى سالم عبد الله حبلوص[8]، كما يمكن للباحث أن يجد في المقدمة التي كتبها د. عبدالهادي التازي[9]، والذي حقق رحلة ابن بطوطة، الكثير من المعلومات الخاصة بمخطوطات الرحلة ومكانتها بين الدراسات العربية والأجنبية، فضلاً عن مكانتها في أدب الرحلات.

القارئ لرحلة ابن بطوطة يُلاحظ إعجاب ابن بطوطة ببني مرين، ويُلاحظ الإطناب في وصفهم ومحاسن خلفائهم وأمرائهم وذكر مآثرهم، وهذا الإعجاب يأتي نظراً لمواقفهم الحاسمة في تاريخ بلاد المغرب، فقد سعوا في توحيده وإزالة الفرقة بين حدوده[10]، وأقاموا به المنشآت الدينية والثقافية

والمعمارية من مساجد[11] ومدارس[12] وزوايا[13] ومارستانات[15] وقصور ودور وقناطر وحصون... وغيرها وشيدوا المدن[14] والحصون والقلاع[16]، كما أنهم ساهموا مساهمة كبيرة في إنجاد أهل الأندلس من نصارى الأسبان والبرتغاليين وهو ما تُشيد به المصادر التاريخية[17]، ولم يبخلوا بمالٍ ولا رجال على أهل الأندلس والمغرب[18]؛ ولذلك كان ابن بطوطة لا يفتر عن ذكر محاسنهم ولا يغفل عن نشر محامدهم.

وكانت مغادرة ابن بطوطة لطنجة في أيام السلطان أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني[19] الذي تولى الملك سنة 710هـ وتوفى سنة 731هـ[20]، وقد كان خُروج ابن بطوطة من طنجة نقطة البداية في رحلته حسب ما يذكر عام 725هـ[21]، ولما رجع إلى بلاد المغرب وجد علي عرش الدولة المرينية السلطان أبي عنان فارس المريني، وكان ذلك سنة 750هـ[22]، قال ابن بطوطة: "وصلت في أواخر شهر شعبان المكرم من عام خمسين وسبعمائة حضرة فاس، فمثلت بين يدي مولانا الأعظم، الإمام الأكرم، أمير المؤمنين، المتوكل على رب العالمين، أبي عنان..."[23].

وكان ابن بطوطة عند وصوله يُخبر الناس بما شاهد ورأى في رحلاته من غريب الأخبار ونوادر الأسفار، وكان الوزير (أبا زيان فارس بن ميمون بن ودرار)[24] وزير السلطان أبوعنان ممن استأنس بابن بطوطة وأولع بأخباره، وقد دافع عنه في كثيرٍ من المجالس حينما شاع الخبر بأنه يكذب في روايته ويُبالغ في أحاديثه ويتقول ما لا وجود له، وقد ذكر ابن خلدون أنه كان يشك في أخبار ابن بطوطة وذلك لتواتر الألسنة بتكذيبه وخاصة فيما كان يَروي من أخبار عن الهند[25]، قال ابن خلدون: "ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يُعرف بابن بطوطة كان رحل منذ عشرين سنةٍ قبلها إلى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند، ودخل مدينة (دهلي) حاضرة ملك الهند، وهو السلطان محمد شاه، واتصل بملكها لذلك العهد وهو (فيروز جوه) وكان له فيه مكان، واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله، ثم انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان، وكان يُحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض، وأكثر م كان يُحدث عن دولة صاحب الهند، وياتي من أحواله بما يستغربه السامعون... فتناجى الناس بتكذيبه..."[26]، وقد إلتقى المؤرخ ابن خلدون مع أبوزيان فارس بن ودرار وزير السلطان أبوعنان وفاوضه في شأن ابن بطوطة وإنكاره لأخباره، فنهاه الوزير ابن ودرار عن إنكار ما لم يره، قال ابن خلدون: "ولقيت أيامئذ وزير السلطان فارس بن ودرار البعيد الصيت، ففاوضة في هذا الشأن وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل، لما استفاض في الناس من تكذيبه، فقال لي الوزير فارس: إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره..."[27]، وقد حاول ابن خلدون أن يضع مقياساً لأخبار ابن بطوطة حيث قال في نفس السياق: "فليرجع الإنسان إلى أصوله وليكن مهيمناً على نفسه، ومميزاً بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته، فما دخل نطاق الإمكان قبله، وما خرج عنه رفضه، وليس مرادنا الإمكان العقلي، وإنما المراد بحسب المادة التي للشيء فإنا إذ نظرنا أصل الشيء وجنسه وصنفه ومقدار عظمته وقوته أجرينا الحكم من نسبة ذلك على أحواله، وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه، والله سبحانه وتعالى أعلم"[28].

وتجدر الإشارة أن ابن جزي كاتب الرحلة كان يشك في بعض الأحيان فيما يكتبه من أقوال ابن بطوطة فيقول: "وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار، ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختيار ..."[29].

ولما أصبح ابن بطوطة يُذيع مشاهداته وينشرها بين الخاصة والعامة، أمرَّ السلطان أبوعنان المريني كاتبه أبا عبد الله محمد بن جزى بكتابة هذه الرحلة، فانتقلت الرحلة من الحديث والرواية

والأخبار إلى التدوين والكتابة، فقد أعجب السلطان، وبما تضمنته من سردٍ جميل ووقائع وحكايات عن سياسة حكام البلدان التي زارها ابن بطوطة، ومن عادات وتقاليد الشعوب التي شاهدها، وقد خشي السلطان من ضياع هذا العمل فسأل ابن بطوطة أن يُدون أخبار رحلته، قال ابن جزي في الرحلة: "ونفذت الإشارة الكريمة بأن يُملي ما شاهده في رحلته من الأمصار، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار، ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار، وعلمائها الأخيار، وأوليائها الأبرار، فأملي من ذلك ما فيه نزهة الخواطر، وبهجة المسامع والنواظر، من كل غريبة أفاد باجتلائها، وعجيبة أطرف بانتحائها"[30]، وقد اختار السلطان أبوعنان لهذه المهمة كاتبه ابن جزي، وأصدر إليه أمراً بذلك، قال: "وصدر الأمر العالي لعبد مقامهم الكريم، المنقطع إلى بابهم المستشرف بخدمة جنابهم، محمد ابن محمد بن جزي الكلبي... أن يضم أطراف ما أملاهُ الشيخ أبوعبدالله من ذلك مشتملاً في تصنيف يكون على فوائده مشتملاً، ولنيل مقاصده مكملاً، متوخياً تنقيح الكلام وتهذيبه، معتمداً إيضاحه وتقريبه، ليقع الاستمتاع بتلك الطرف، ويعظم الانتفاع بدرّها عند تجريده"[31] فأملي ابن بطوطة رحلاته على ابن جزي، ويقول ابن جزي في ذلك: "ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبدالله بألفاظ موفية للمقاصد التي قصدها، موضحة للمناحي التي اعتمدها، وربما أوردت لفظة على وضعه، فلم أخل بأصله ولا فرعه"[32]، وذكر ابن جزي المنهج الذي اتبعه في كتابه الرحلة فيقول: "وقيدت المشكل من أسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط، ليكون أنفع في التصحيح والضبط، وشرحت ما أمكنني شرحه من الأسماء العجمية؛ لأنها تلتبس بعجميتها على الناس، ويخطئ في فك معماها معهود القياس"[33].

وتجدر الإشارة إلى أن ابن بطوطة لم يكن كاتباً أو أديباً بحيث يكتب رحلته بنفسه، وإنما كان رجلاً فقيهاً، وهو بنفسه يعترف بذلك، فقد خيرهُ يوماً ملك الهند بين الوزارة والكتابة والقضاء، فقال: "أما الوزارة والكتابة فليست شغلي، وأما القضاء والمشيخة فشغلي وشغل آبائي"[34] وإنما فضل القضاء على الكتابة؛ لأنه يعرف مقدرته في الفقه الإسلامي ويعلم علم اليقين أن هاتين الوظيفتين تحتاجان إلى متانة في الأسلوب وعلم الأدب، والأدباء هم أقدر على التعبير عن المعاني بأساليب جذابه تستهوي القراء وتستميلهم للاطلاع، وابن جزي هو الذي طبع رحلة ابن بطوطة بطابع الأدب في كثير من فصولها، وجعلها بعيدة عن الإسفاف في التعبير، والضعف في التصوير؛ لأنه كان يمتاز بسعة ثقافة، وحُسن توظيف للمعاني بألفاظ بديعة وجُمل رفيعة لا تعقيد فيها ولا غموض، وهو الذي بفضله أصبحت هذه الرحلة نموذجاً أدبياً، وابن بطوطة لم يكن رحالة بالمعنى العلمي، ولم يكن عالماً مفكراً، ولم يكن إلا رجلاً متسع العقل راغباً في التعرف على كل جديد وغريب بحيث يشبع رغبته بحبه للأسفار والترحال للبلاد البعيدة.

ثانياً- مآثر الدولة المرينية من خلال رحلة ابن بطوطة: نتيجة **المبادرة الحميدة من السلطان أبي عنان المريني دُونت رحلة ابن بطوطة، فقد كلف كاتبهُ الخاص ابن جزي بكتابة تلك الرحلة الشهيرة بناء على رواية صاحبها ابن بطوطة، وقد سميت هذه الرحلة بـ(تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) والتي تُعد تحفة الأدب العربي، وتُعد من أشهر الرحلات المغربية والعربية.**

ونقفت هنا لنتسأل بنظرة الباحث التاريخي الذي ينظر فيما وراء الحدث عن الأسباب التي دعت أبي عنان المريني أن يُصدر أمره بكتابة الرحلة إلى كاتبه؟ وعن الغاية التي كان يتوخاها أبي عنان من كتابة هذه الرحلة؟

بغض النظر على أن أبا عنان كان يخشى على هذا العمل من الضياع، وأن يخرج به من نطاق الرواية والسرد القصصي إلى العمل الأدبي، إلا أنه كانت هناك دوافع أخرى غير الدوافع الأدبية،

فالقارئ لتحفة النظار يُلاحظ أنه عمل استثمر استثماراً جيداً للتأريخ لبنى مرين والدعاية لهم، إذاً كانت هناك دوافع وأسباب سياسية وراء الأمر الصادر بكتابة هذه الرحلة، فقد كان أبا عنان يريد أن يستغل هذه الرحلة للدعاية له ولاعماله، وأن يجعلها وسيلة للمس بأعدائه والكشف عن مساوئهم بحيث لا يقتصر ابن بطوطة عن نشر الأخبار مجردة؛ بل يُضيف إليها في كل مناسبة ما يرفع به من شأن بني مرين على العموم.

وإذا كان ابن بطوطة قد يتوقف في هذا العمل بالنسبة إلى مرئياته العامة فهو ليس له إلمام بكثير من الحوادث السياسية التي وقعت بالمغرب أيام غيبته الطويلة التي دامت خمسة وعشرين سنة[35]،

لذلك كان من الضروري أن يُضاف إليه شخص آخر تكون له دراية بالوقائع الحديثة، ومعرفة بأحوال الدولة القائمة، وعلم بالسير العام الذي تسير عليه الدولة في الداخل والخارج، ولم يجد أبوعنان من كُتابه من تجتمع فيه هذه الصفات مثل أبي عبدالله بن جزي؛ لذلك أمرهُ بجمع ما يمليه ابن بطوطة في كتابٍ جامعاً لفوائده مكملاً لمقاصده[36].

وقد عمل هذا الكاتب على تحقيق الغاية من اختياره، فكان لا يتوانى عن ذكر محاسن أبي عنان وغيره من ملوك بني مرين ولا يُقصر في الحديث عنهم كلما أمكنه ذلك، فلما ذكر ابن بطوطة بداية رحلته وخروجه من طنجة عام 725هـ[37] ذكر السلطان أبي سعيد، وهو جد السلطان أبي عنان الذي تولى الحكم من عام 710هـ إلى 731هـ، وهو الذي أمر بإنشاء الأساطيل برسم الجهاد في الأندلس، وهو الذي بني بمدينة فاس مدرسة العطارين[38]، قال: "وكان ارتحالي في أيام أمير المؤمنين وناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين الذي رويت أخبار جوده موصولة الإسناد بالإسناد وشهدت آثار كرمه شهرة واضحة الإشهاد، وتحلت الأيام بحلي فضله، ورتع الأنام في ظل رفقة وعدله، الإمام المقدس أبي سعيد ابن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين الذي فل حدَّ الشرك صدق عزائمه، وأطفأت نار الكفر جداول صوارمه، وفتكت بعُباد الصليب كتائبه، وكرمت في إخلاص الجهاد مذاهبه، الإمام المقدس أبي يوسف[39] ابن عبد الحق[40]، جدد الله عليهم رضوانه وسقى ضرائحهم المقدسة وجزاهم أفضل الجزاء عن الإسلام والمسلمين، وأبقى الملك في عقبهم إلى يوم الدين"[41].

ولما تعرض ابن بطوطة لذكر مآثر السلطان أبي الحسن المريني في جبل الفتح[42]، تعرض ابن جزي لموافقة الحربية، واستيلائه عليه من يد الأسبان فقال: "ثم فتحة مولانا أبو الحسن، رضوان الله عليه، واسترجعه من أيدي الروم بعد تملكهم له عشرين سنة ونيفاً[43]، وبعث إلى حصاره ولده الأمير الجليل أبا مالك، وأيده بالأموال الطائلة، والعساكر الجرارة، وكان فتحه بعد حصار ستة أشهر، وذلك في عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة، ولم يكن حينئذ ما هو الآن عليه، فبنى به مولانا أبو الحسن رحمة الله عليه، المآثر العظمى بأعلى الحصن، وكانت قبل ذلك برجاً صغيراً تهدم بأحجار المجانيق، فبناها مكانة، وبنى به دار الصناعة، ولم يكن به دار صنعة، وبنى به السور الأعظم المحيط بالتربة الحمراء"[44]، ثم أورد ابن بطوطة الأعمال التي قام بها السلطان أبي عنان عقب وفاة والده أبي الحسن في جبل الفتح فقال: "ثم جدد مولانا أمير المؤمنين أبوعنان، أيده الله، عهد تحصينه وتحسينه، وزاد بناء السور بطرف جبل الفتح، وهو أعظم أسواره غناء، وأعمها نفعاً وبعث إليه العدد الوافر والأقوات والمرافق العامة"[45].

ولما تحدث ابن بطوطة عن مآثر أبي عنان وشيمه وكرمه قال: "أما عدله فأشهر من أن يُسطر في كتاب، فمن ذلك جلوسه للمشتكن من رعيته، وتخصيصه يوم الجمعة للمساكين منهم، وتقسيمه ذلك اليوم بين الرجال والنساء، وتقديمه النساء لضعفهن، فتقرأ قصصهن بعد صلاة الجمعة إلى العصر، ومن وصلت نوبتها نودي باسمها، ووقفت بين يديه الكريمين، ويكلمها دون واسطة، فإن

كانت مظلومة عجل إنصافها، أو طالبة إحسان وقع إسعافها، ثم إذا صُليت العصر فرئت قصص الرجال، وفُعل مثل ذلك فيها، ويحضر المجلس الفقهاء والقضاة، فيرد إليهم ما تعلق بالأحكام الشرعية، وهذا شيء لم أرَ في الملوك من يفعله على هذا التمام، ويظهر فيه مثل هذا العدل"[46].

ويُظهر ابن جزي مآثر السلطان أبي عنان في الكرم والجود في اهتمامه بشؤون الرعية فيقول: "اخترع مولانا أيده الله في الكرم والصدقات أموراً لم يخطر في الأوهام، ولا اهتدت إليها السلاطين، فمنها إجراء الصدقات على المساكين بكل بلد من بلاده على الدوام، ومنها تعيين الصدقة الوافرة للمسجونين في جميع البلاد أيضاً، ومنها كون تلك الصدقات خبزاً مخبوزاً ميسراً للانتفاع به، ومنها كسوة المساكين والضعفاء والعجائز والمشايخ والملازمين للمساجد بجميع بلاده، ومنها تعيين الضحايا لهؤلاء الأصناف في عيد الأضحى، ومنها التصرف بما يجتمع في مجابن أبواب بلاده يوم سبعة وعشرين من رمضان إكراماً لذلك اليوم الكريم وقياماً بحقه، ومنها إطعام الناس في جميع البلاد ليلة المولد الكريم واجتماعهم لإقامة رسمة، ومنها إعذار اليتامي من الصبيان وكسوتهم يوم عاشوراء... وتلك مكرمة لا يعلم لها نظير"[47].

من خلال إستقراء النص السابق نلاحظ ورود كلمة (وبكل بلد من بلاده، وبجميع بلاده، وفي جميع البلاد) وهذا ليَدلُ على اتساع رقعة الدولة المرينية على عهد السلطان أبي عنان المريني، وهو ما تذكره المصادر التاريخية بأن الدولة المرينية شهدت على عهد اتساعاً كبيراً[48].

كما نلاحظ أيضاً محاولة ابن جزي إظهار السلطان أبوعنان بالمظاهر الدينية من خلال الاهتمام بالمناسبات والأعياد الدينية، مثل عيد الأضحى، وليلة السابع والعشرين من رمضان، والمولد النبوي الشريف، ويوم عاشوراء، وذلك لما لهذه الأعياد والمناسبات من تأثير ديني في نفوس الناس، وهي تضفي على السلطان أبي عنان صبغة دينية في الوسط الاجتماعي.

وحديث ابن جزي في رحلة ابن بطوطة عن المولد النبوي بالديار المغربية حديث له دلالاته، فهو عيد تجتمع الناس فيه لإقامة رسمه كما يقول[49]، إذاً أصبح الاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف من ضمن الأعياد التي يحتفل بها في هذه الدولة، وهو ما لم يكن معروفاً في الدول التي سبقتها، وتجذر الإشارة إلى أن السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، إليه يرجع الفضل في إصدار أمراً إلى سائر عمال المغرب بإقرار الاحتفال بعيد مولد النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك في أواخر القرن السابع الهجري سنة 691هـ[50]، وقد اعتبر ابن أبي دينار[51] أن السلطان أبا عنان هو أول من احتفل بعيد المولد النبوي واعتنى بتعظيمه في البلاد المغربية وأظهر فيه شعائر الولادة المحمدية.

ويتحدث ابن جزي عن اهتمام السلطان أبوعنان بالجانب الصحي من خلال بناء المستشفيات وتوفير الإمكانيات لها من أموال ومؤن وأطباء متخصصين لعلاج المرضى، فيقول: "ومنها بناء المرستانات في كل بلد من بلاده، وتعيين الأوقاف[52] الكثيرة: لمؤن المرضى، وتعيين الأطباء لمعالجتهم والتصرف في طلبهم، وإلى غير ذلك مما أبدع فيه من أنواع المكارم وظرب المآثر، كافأ الله أياديه وشكر نعمه"[53].

من خلال استقراء هذا النص وتحليله نستنتج أن السلطان أبا عنان المريني كان له اعتناء خاص بالرعاية الصحية من خلال بناء المارستانات[54] لتقديم الخدمات الصحية في كل بلد من بلاده على ما يذكره ابن بطوطة، وهو ما تؤكده المصادر التاريخية[55] من أن السلطان أبا عنان بني العديد من المارستانات في الكثير من مدن بلاد المغرب منها مدينة تازا[56]، ومكناس[57]، وشالة[58]، وسلا[59]، وآسفي[60]، والرباط[61]، بالإضافة إلى حاضرة ملكه فاس، التي بنى فيها العديد من المارستانات، وفي هذا الصدد يقول الرحالة الحسن الوزان عند زيارته لفاس أواخر القرن العاشر

الهجري إن بفاس: "... يوجد بيمارستانات عديدة لا تقل حسناً عن المدارس ... ويوجد بها بيمارستانات خارج المدينة"[62]، وقد كانت هذه المارستانات تقوم بإيواء المرضى في حجرات خاصة بهم، وحجرات لعلاج المرضى، وقد رتب السلطان أبوعنان لهذه المارستانات الأطباء لمعالجة المرضى، وكانوا يأخذون مرتبات شهرية نظير عملهم هذا من أموال الأوقاف الموقوفة على هذه المارستانات، كما يصرف من أموال الأوقاف كل ما تحتاجه هذه المارستانات من صيانة وترميم وتوسيع، وخدمات عامة وغيرها، وعلى هذا يمكن القول أن هذه المارستانات شبيهة بالمستشفيات في وقتنا الحالي بما تقدمه من خدمات الرعاية الصحية.

وتجذر الإشارة إلى أن أول مارستان بني في بلاد المغرب في عصر الدولة المرينية يرجع إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق الذي بناه بفاس سنة 685هـ[63]، وفي ذلك يقول صاحب القرطاس: "ولما ولي – يقصد أبويوسف يعقوب –واستقام له الأمر صنع المارستان للمرضى والمجانين، وأجرى عليهم النفقات وجميع ما يحتاجون إليه من الأغذية والأشربة، وأمر الأطباء بتفقد أحوالهم كل يوم غذوة وعشيه، وأجرى على الكل الأنفاق من بيت المال، وأجرى على الجُدما والعميان والفقراء مالاً معلوماً يأخذونه كل شهر..."[64]، وبهذه المبادرة سَنَ السلطان يعقوب بن عبدالحق سُنة حسنة في بناء المارستانات والتحبيس عليها في الدولة المرينية، واقتفى أثره في ذلك أبناؤه وأحفاده من بعده.

ويذكر المراكشي أن أقدم مارستان بُني في بلاد المغرب يرجع إلى عصر الدولة الموحدية، ويعود إلى فترة حكم السلطان يعقوب المنصور الموحدي (580-595هـ) الذي بناه في مدينة مراكش[65]، إلا أن الفارق بين المارستانات الموحدية والمرينية، أن المارستانات الموحدية كان يُصرف عليها من أموال الدولة، بينما المارستانات المرينية كانت لها ميزانية خاصة بها على الدوام ألا وهي أموال الأوقاف من العقارات الكثيرة الموقوفة عليها، وهذا ما يفهم من كلام ابن بطوطة من قوله في النص السابق: "وتعيين الأوقاف الكثيرة..."[66].

ويتحدث ابن بطوطة عن اهتمام السلطان أبي عنان المريني ببناء المساجد وعمارتها، وبناء المدارس، فيقول: "ومن أعظم حسناته أيده الله عمارة المسجد الجديد بالمدينة البيضاء دار ملكة، وهو الذي امتاز بالحُسن واتقان البناء وإشراق النور، وبديع الترتيب، وعمارة المدرسة الكبرى[67]، بالموضع المعروف بالقصر مما يُجاور قصبة فاس ولا نظير لها في المعمور إتساعاً وحُسناً وإبداعاً وكثرة ماء وحُسن وضع، ولم أرَّ في مدارس الشام ومصر والعراق وخُراسان ما يُشبهها"[68].

ولما ذكر ابن بطوطة في رحلته الصفات الكريمة للملك الناصر محمد بن المنصور بن قلاوون سلطان مصر[69]، وأنه بنى زاوية عظيمة خارج القاهرة، قال: "ولكن الزاوية التي بناها مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين وكهف الفقهراء والمساكين، خليفة الله في أرضه القائم من الجهاد بنفله وفرضه أبوعنان أيد الله أمره، وأظهره، وسنى له الفتح المبين ويسره، بخارج حضرته العلية المدينة البيضاء حرسها الله، لا نظير لها في المعمورة في اتقان الوضع، وحُسن البناء والنقش على الجص، بحيث لا يقدر أهل المشرق على مثله"[70]، ويذكر هذه الزاوية في موضع آخر فيقول: "وعمارة الزاوية العظمى على غدير الحمّص، خارج المدينة البيضاء، فلا مثل لها في عجيب وضعها وبديع صنعها، وأبدعُ زاوية رأيتها بالشرق زاوية (سرياقص) التي بناها الملك الناصر، وهذه أبدع منها وأشد إحكاماً وإتقاناً، والله سبحانه ينفع مولانا أيده الله بمقاصده الشريفة..."[71].

هذه الزاوية التي يتكلم عنها ابن بطوطة هي من أشهر الزوايا التي بناها السلطان أبي عنان المريني، حيث تذكر المصادر التاريخية أنه أسسها سنة 754هـ[72]، وهي تعرف باسم الزاوية المتوكلية[73]، وتعرف أيضاً باسم زاوية الضيفان[74]، تلميحاً لوظيفتها الإحسانية، وقد اطنب المؤرخ

ابن الحاج النميري، المعاصر لفترة إنشائها في وصفها، واعتبرها أعجوبة المغرب والمشرق في البناء والنقش[75].

ويُعد السلطان أبوعنان المريني من أكثر سلاطين الدولة المرينية اهتماماً ببناء الزوايا والنفقة عليها، حيث أسس العديد من الزوايا وأوقف الأوقاف الكثيرة عليها، فقد أسس زاوية كبرى بسبته[76]، وزاوية بسلا[77]، وأخرى بشالة[79] وغيرها.

وتجدر الإشارة إلى أن كلمة (زاوية) تستعمل في عصر الدولة المرينية للدلالة على مؤسسات إحسانية تُشيد بالمدن والقرب والأرياف؛ لاستقبال الواردين عليها لإيوائهم والقيام بضيافتهم[78]، وهذا ما يؤكده مؤرخ الدولة المرينية ابن مرزوق بالقول: "والظاهر أن الزوايا –عندنا بالمغرب- هي المواضع المُعدة لإرفاق الواردين وإطعام المحتاجين من القاصدين"[79]، وهو ما يذهب إليه أيضاً صاحب الدخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية بقوله أن السلطان يعقوب بن عبد الحق: "بنا الزوايا في الفلوات، وأوقف عليها الأوقاف الكثيرة لإطعام عابري السبيل وذوي الحاجات"[80]، وهو ما يُشير إليه أيضاً المقرّي[81] الذي زار الزاوية المتوكلية في صدر القرن الحادي عشر للهجرة، وقرأ كتابة شعرية مكتوبة عليها تلميحاً لدورها الإحساني:

هذا محل الفضل والإيثار	***	**والرفق بالسكان والزوار**
دارٌ على الإحسان شُيدت والتقى	***	**فجزاؤها الحُسنى وعقبى الدار**
هي ملجأ للواردين وموردٍ	***	**لابن السبيل وكل ركبٍ سار**

كما تكلم ابن جزي عن شجاعة السلطان أبي عنان فقال: "لم يزل الملوك الأقدمون تتفاخر بقتل الآساد وهزائم الأعادي، ومولانا أيده الله كان قتل الأسد عليه أهون من قتل الشاة على الأسد، فإنه لما خرج الأسد على الجيش بوادي النجارين من المعمورة بحوز سلا، وتحامته الأبطال، وفرت أمامه الفرسان والرجال، برز إليه مولانا أيده الله غير محتفلٍ به، ولا متهيبٍ منه، فطعنهُ بالرمح ما بين عينيه طعنه خرَّ بها صريعاً"[82].

ويتحدث ابن جزى عن حب السلطان أبي عنان للعلم والاستغال به فيقول: "أما اشتغاله بالعلم فها هو أيده الله تعالى يعقد مجالس العلم في كل يوم بعد صلاة الصبح، ويُحضر لذلك أعلام الفقهاء، ونجباء الطلبة بمسجد قصره الكريم، فيُقراء بين يديه تفسير القرآن العظيم، وحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم، وفروع مذهب مالك رضي الله عنه، وكتب المتصوفة، وفي كل علمٍ منها له القدْح المُعلى، يجلوا مشكلاته بنور فهمه"[83]، ثم يُردف بالقول: "لو ان عالماً ليس له شغل إلا بالعلم ليلاً ونهاراً، لم يكن يصل إلى أدنى مراتب مولانا أيده الله في العلوم، مع اشتغاله بأمور الأمة، وتدبيره لسياسة الأقاليم النائية، ومباشرته من حال ملكه ما لم يباشرهُ أحد من الملوك، ونظرهُ بنفسه في شكايات المظلومين ومع ذلك كله فلا تقع بمجلسه الكريم مسألة علمٍ في أي علم كان إلا جَلاّ مشكلها، وباحث في دقائقها، واستخرج غوامضها واستدرك على علماء مجلسه ما فاتهم من مغلقاتها"[84].

نُلاحظ من خلال استقراء النصوص السابقة في هذه الرحلة، مبالغة ابن جزى في إظهار مآثر السلطان أبي عنان بصفة خاصة وبني مرين بصفة عامة؛ ولكن ليس معنى ذلك سلبية موقف ابن بطوطة، فابن بطوطة أيضاً قام بواجبه نحوهم واستطاع أن يصور اعدائهم تصويراً مشوهاً من الموحدين وولاتهم، فقد ذكر بعد خروجه من بلاد المغرب الأقصى، ووصوله إلى بلاد المغرب الأوسط، وتحديداً إلى مدينة بجاية[85]، أن أحد المسافرين معه من تجار تونس قد توفى وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب، وكان قد أوصى بها رجلاً ليوصلها إلى ورثته بتونس؛ ولكن وإلى بجاية (أبا عبدالله محمد بن سيد الناس الحاجب)[86] عَلِمَ بذلك فانتزعها من الوصي، ويُتبع ابن بطوطة بالقول

لهذه الحادثة: "وهذا أول ما شهدته من ظلم عمال الموحدين وولاتهم"، وتاتي هذه الإشارة إلى تسليط الضوء على مشروعية الأعمال التي قام بها بنو مرين ضد الدولة الحفصية[87]، فلقد توجه أبو الحسن المريني، والد أبوعنان إلى تونس وأزال الحفصيين من الحكم واستقر بها[88]؛ إلا أنه وجد معارضة كبيرة من بعض القبائل العربية فقاوموه مقاومة شديدة أدت إلى حصاره بالقيروان سنة 749هـ[89]، ولقد اتفق هؤلاء العرب على تولية أحد الموحدين عليهم[90]، واستطاعوا أن يستميلوا إليهم رجلاً كان في جانب أبي الحسن هو أبوعبد الله محمد بن تافراجين ففر معهم واستغل معارضتهم لمصلحته[91]، ولكن ما لبث أن فر إلى الإسكندرية حينما اضطرب أمرّ أصحابه[92]، ولما وصل ابن بطوطة إلى تونس عند عودته من رحلته[93]، ذكر اتصاله بالسلطان أبي الحسن المريني وسأله العديد من الأسئلة كان من بينها سؤالهُ عن ابن تافراجين قال: "وسألني عن ابن تافراجين فأخبرته بما فعلت المغاربة معه، وإرادتهم قتله بالإسكندرية وما لقي من أديتهم، انتصاراً منهم لمولانا أبي الحسن رضي الله عنه"[94]، أن ابن بطوطة هنا يظهر تعلق المغاربة بسلطانهم أبي الحسين رغم وجودهم في خارج المملكة، ومحاولتهم قتل رجل علموا بخيانته لسلطانهم، ومما لا شك فيه أن تعرض ابن بطوطة لابن تافراجين وتحدثه عن كراهية المغاربة له، يرجع إلى الدور الخطير الذي لعبه هذا الرجل في تاريخ بني حفص، والتخوفات العظيمة التي كانت تنتاب سلاطين بني مرين منه؛ لأنهم كانوا يعرفون قوة دهائه وكثرة حيله، فهو الذي كان قد أثار حرباً داخلية في تونس، واستطاع الفرار بعد إذكائها إلى المغرب الأقصى، وهو الذي استطاع في أيام لجوءه أن يزين لأبي الحسن غزو تونس والقضاء على بني حفص مؤملاً ان يفوض إليه أبا الحسن المريني أمرّ تونس بعد انتصاره؛ فلما لم يبلغ هدفه انقلب عليه واتصل بأعدائه وتزعم الثورة ضده، ولمَا لم يبلغ مقاصده وفشل في الأمر فر إلى الإسكندرية، وطاف بالمشرق بنشر الدعاية لنفسه، وينتظر الفرصة للانقضاض على أبي الحسن مرة أخرى[95]؛ ولذلك نجد السلطان أبي الحسن مهتماً بفرار ابن تافراجين، وهو ما نفهمه بناء على كل تلك الأحداث ودور هذا الرجل فيها من سؤال أبي الحسن المريني لابن بطوطة، والذي طمأنه على موقف المغاربة منه.

وتجدر الإشارة أن تخوفات أبا الحسن المريني، وسؤاله لابن بطوطة عنه كانت صائبة فلم يلبث ابن تافراجين أن رجع إلى تونس في الثامن عشر من جمادي الأول سنة 751هـ[96] وقام بانقلاب خطير في الدولة الحفصية، حيث ولي على المُلك أبي إسحاق إبراهيم ابن المولى أبي بكر وهو يومئذ قد ناهز الاحتلام[97]، وتحقق لابن تافراجين ما أراد، وأصبح له شأن كبير، وقام بتدبير أمور الدولة، قال ابن الشماع: "وانتهى أمره إلى أن يُسلم عليه سلام الملوك، واستخلص قواعد البلاد من أيدي العرب بأحسن محاولة"[98].

ثالثاً- الصراع على السلطة داخل البيت المريني: من اللافت للنظر **من خلال العرض العام لرحلة ابن بطوطة أنه يمكن أن يستفهم منها وجود ملكين في آن واحد ولدولة واحدة احدهما بتونس، والآخر بالمغرب، وأن ابن بطوطة يمدح كلاهما ويذكر مآثرهما بكل إجلال؛ حتى لا يُشعر القارئ بأن خلافاً كان موجوداً بينهما، فهذا أبي الحسن بتونس، وهذا ولده أبوعنان بالمغرب الأقصى وكلاهما أثنى عليه ابن بطوطة وابن جزي معاً، فهل من المعقول ذلك؟ فالواقع التاريخي يُثبت الخلاف؛ لأن أبا الحسن بعد استقراره بتونس وقعت بينه وبين الحفصيين حروب كاد أن يغلب في بعضها، وقتل من جنوده عدد كبير[99]، وشاع الخبر بهزيمته في القيروان، ونقلت جماعة من بني مرين وبني عبدالواد إلى إبنه أبي عنان بأن أباه كان أحد ضحايا الهزيمة[100] فلم يسعهُ إلا ان يضم شأن البلاد وأن يُعلن البيعة لنفسه[101]، فعمد إلى استصدار وثيقة – وقع عليها عدد كبير من العائدين من موقعه القيروان – تشهد بوفاة والده أبي الحسن، وبمقتضى هذه الوثيقة أصبح**

لأبي عنان الحق في اعتلاء العرش المريني، وبويع سلطاناً على بني مرين أول سنة 749هـ[102]، ولم تمرّ أيام حتى ظهرت له الحقيقة وعلم أن والده ما زال على قيد الحياة.

كان في إمكان أبي عنان – بعد أن علم أن والده ما زال حياً –أن يُجرد حملة لمعاونته؛ لأن حملة كهذه قد تغير مجرى الأحداث كلية في صالح بني مرين؛ ولكن أبا عنان لجأ إلى أسلوب آخر، وبعض المصادر التاريخية تبرر هذا الأسلوب بأن أبا عنان خشي عقوبة والده له[103]، وبعضها يقول: "أن الأمر قد إلتبس عليه"[104]، ولكن هذه المبررات لا تكفي أبداً لإبراء ساحته من تحمل المسؤولية التاريخية لتدهور الوضع المريني في إفريقية، وتذكر المصادر التاريخية أنه حين علم أن والده على قيد الحياة، بعث لجميع عماله أن يصدوا أباه عند توجهه إليهم[105]، وبادر إلى إرسال الأمراء الحفصيين في المغرب الأوسط إلى ولاياتهم بإفريقية ليخوضوا الحرب ضد أبي الحسن لاسترجاع ملك آبائهم في إفريقية[106]، قال ابن الشماع: "فبعث لولاة بجاية وقسنطينة من الموحدين إلى بلادهم، وأخذ عليهم العهود أن يمنعوا أباه من الجواز إلى المغرب"[107]، فلما سد الطريق على والده في البر، ركب السلطان أبي الحسن البحر في أساطيله وتوجه للمغرب[108]، وخَلفَ بتونس ابنه الفضل[109]، واستغلت القبائل العربية هذا الجو، فانظمت إلى الأمير الحفصي أبي العباس الفضل بن يحيى بن أبي بكر[110]، ويقول الزركشي في ذلك: "انتقض العرب على السلطان أبي الحسن واستقدموا السلطان أبا العباس الفضل من بونه[111] لطلب حقه واسترجاع ملك آبائه..."[112]، ونزل السلطان أبوالحسن في سواحل الجزائر بعد أن غرق معظم أسطوله بما فيه من مالٍ ورجال[113]، وتحرك لتلمسان بهدف الحصول على انتصار يدعم موقفه في المغرب الأوسط؛ لكنه مُني بهزيمة فادحة ألحقها به أبوثابت أخو عثمان بن عبدالرحمن بن يُغمراسن بن زيان، الذي بايعه بني عبدالواد بإفريقية لإحياء دولة بني عبدالواد بتلمسان[114]، وهرب أبوالحسن إلى سجلماسه ولكنه لم يستقر بها؛ لأن ولده أبا عنان تقدم بجيوشه نحوها، فآثر أبي الحسن الذهاب إلى مراكش، وكان ذلك سنة 751هـ[115]، وفي مراكش انتعشت آمال أبي الحسن قليلاً عندما سارع إليه أهلها بالطاعة ودخل في طاعته قبائل العرب والمصامدة، وفر عامل مراكش إلى أبي عنان[116]، وباستيلائه على مراكش كان السلطان أبي الحسن يأمل أن يسترجع سلطانه الذي ضاع منه.

وفي هذا الاثناء عاد أبي عنان من سجلماسة إلى فاس وقام بتجهيز جيش كبير للقضاء على والده المطالب بالسلطة، والتقى الجمعان بوادي الربيع في آخر صفر سنة 751هـ، وتربص كل واحد بصاحبه عبور الوادي فعبره أبي الحسن وانهزم عسكره، وهرب أبو الحسن إلى جبال هنتاته، وتبعه ولده أبوعنان محاصراً للجبل[117]، ولما طالت مدة الحصار طلب من ولده أبي عنان "الإبقاء عليه وأن يبعث إليه حاجبهُ أبا عبدالله محمد بن أبي عمر، فحضر عنده وأحسن العذر عن الأمير أبي عنان وإلتمس له الرضا منه فرضى عنه وكتب له بولاية عهده"[118]، وهذا يعني أن أبا الحسن لم يتنازل لولده عن العرش المريني وإنما اكتفى بتعينه ولياً للعهد، وبقى هو سلطاناً حتى وفاته، فلم يمضي وقت طويل حتى مرض أبوالحسن "واقتصد لإفراج الدم منه ثم باشر الماء للطهارة فورم محل الفصادة ومات رحمة الله في الثالث والعشرين من ربيع الثاني سنة 752هـ"[119]، وبعد موته تولى ابنه دفنه وأقام له جنازة وبكى على نعشه ودفنه بمراكش ثم نقل رفاته بعد ذلك إلى شالة مقبرة أسلافه من ملوك بني مرين[120].

كل هذه الأحداث التي حدثت في البيت المريني من صراع على السلطة كان ابن بطوطة وابن جزي معاصيرين لها، والسؤال الذي يطرح نفسه علينا هو لماذا لم يذكر ابن بطوطة وابن جزي كل هذه الأحداث التاريخية في تحفة النظار؟ والإجابة عن هذا السؤال ترجعنا إلى الفرضية الأولى من هدف السلطان أبي عنان من كتابة الرحلة وإلى ما ذهبنا إليه سابقاً.

الخاتمة والتوصيات:

نستنتج من دراسة موضوع هذا البحث حول الدولة المرينية خلال القرن الثامن الهجري من خلال رحلة ابن بطوطة الآتي:

1- إن رحلة ابن بطوطة تعد مصدراً تاريخياً مهماً لتاريخ الدولة المرينية وهي تشكل وثيقة حضارية وثقافية.
2- أن ابن بطوطة لم يكن رحالة بالمعنى العلمي بحيث يُسجل ملاحظاته كما يفعله أغلب الرحالة، ولم يكن عالماً مفكراً، ولم يكن كاتباً دققاً؛ بل هو رجلٌ متسع العقل هاوي الترحال لمعرفة الجديد والغريب.
3- إن رحلة ابن بطوطة هي عمل مشترك بين ابن بطوطة وابن جزى الأول أملاها من ذاكرته والثاني كبتها بأسلوب الأدبي وأضاف إليها بعض الزيادات، ولولا السلطان أبوعنان ما كتبت هذه الرحلة.
4- يمثل القرن الثامن الهجري عصر النهضة العلمية والحضارية والمعمارية للدولة المرينية، ممثلاً في بناء المدارس والمساجد والزوايا ... وغيرها.
5- تميزت العمارة الدينية والعلمية بنمط راقي من الزخرفة والنقش على الجص مما يعبر عن رُاقي الحضارة المرينية والتي ما زالت آثارها باقية إلى اليوم.
6- اهتمت الدولة المرينية بالعلم والعلماء، وشجعت الأدباء على حركة التأليف فنشطت الحركة العلمية والأدبية، وما رحلة ابن بطوطة إلا إحدى الدُرّر التي زينت التاج المريني.
7- اهتمت الدولة المرينية بالتحصينات الدفاعية مثل تحصينات جبل الفتح (جبل طارق)؛ وذلك لوقف خطر المد المسيحي من جهة الأندلس.
8- اهتمت الدولة المرينية بالأسطول البحري وبنت دار لصناعة السفن بجبل الفتح.
9- شهدت الدولة المرينية صراعاً عنيفاً على السلطة داخل البيت المريني بين السلطان أبي الحسن وولده أبي عنان أضعفت من هيبة الدولة، وأضاعت جهود السلطان أبوالحسن لتوحيد بلاد المغرب تحت راية واحدة لم تتحقق منذ عصر الدولة الموحدية.
10- ساهم الصراع الداخلي في البيت المريني، عودة الانقسام في بلاد المغرب، فعادت الدولة الحفصية للحكم في بلاد المغرب الأدنى، والدولة الزيانية العبد وادية إلى المغرب الأوسط في تلمسان.

وفي خاتمة هذا البحث أوصى الباحثين الجادين بدراسة موضوع هذا البحث وتناوله بالدراسة والتحليل؛ لأن هذا الموضوع –حسب علمي- لم يتم التطرق إليه، وفيه العديد من الإشارات التاريخية والحضارية التي يجد فيها الباحث ظالته ومقارنتها مع المصادر التاريخية الأخرى.

الهوامش:

1. **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، نقله إلى الروسية، صلاح الدين عثمان هاشم، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م.
2. **الجغرافيا والرحلات عند العرب**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1962م.
3. **ابن بطوطة ورحلاته**، دار المعارف، القاهرة، 1980م.
4. **رحلة ابن بطوطة**، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1968م.
5. **ابن بطوطة ورحلته**، مطبعة الآداب، النجف، 1971م.
6. **ذكريات مشاهير رجال المغرب (ابن بطوطة)**، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة أيسيسكو، 1996م.

7. **الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي والمشرق**، دار المدار الإسلامي، 2004م.
8. **أدب الرحلات عند العرب نشأته وتطوره (ابن بطوطة أنموذجاً)**، المركز الوطني للمخطوطات والدراسات التاريخية، طرابلس، 2009م.
9. **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تحقيق: عبدالهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997م.
10. **ابن خلدون: عبدالرحمن (ت808هـ)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في ذكر من غبر من العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الفكر، بروت، 2001م، 270/7، وينظر **د. محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني**، دار القلم، الكويت، 1985م، ص116-120.
11. **الجزنائي: علي، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، تحقيق: عبدالوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1967م، ص65، وينظر: **الونشريسي: أحمد بن يحيى (ت914هـ)،المعيار المُعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب**، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف/ محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م، 331/7-332، وينظر كذلك: **د. عبدالهادي التازي، جامع القروبين المسجد والجامعة**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1973م، 333/2.
12. **ابن أبي زرع: أبوالحسن بن عبدالله (ت741هـ)، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص162. وينظر كذلك/ الجزنائي، المصدر السابق، ص75.
13. **ابن الحاج النميري: إبراهيم بن عبدالله (ت768هـ)، فيض العُباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب**، تحقيق: محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995م، ص202، 199؛ وينظر كذلك / **ابن الخطيب: أبوعبدالله محمد بن عبدالله (ت776هـ)، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، تحقيق/ أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1983م، ص153.
14. **ابن الخطيب: أبوعبدالله محمد (ت776هـ) مشاهدات ابن الخطيب**، تحقيق: د. أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، 1983ن، ص62، 148، وينظر كذلك/ الكتاني: محمد عبدالحي، الملاجئ الخيرية الإسلامية في الدولة الموحدية والمرينية بالديار المغربية، المجلة الزيتونية، تونس، 1939م، مج3، 239/6، وينظر كذلك/ **د. أحمد إبراهيم الهواري، من تاريخ الطب الإسلامي**، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2005م، ص254-256.
15. ابن خلدون، المصدر السابق، 458/7، وينظر: **د. عبدالعزيز محمود لعرج، مدينة المنصورة المرينية بتلمسان**، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2006م، ص55-58، وينظر محمد عيسى، المرجع السابق، ص320.
16. **ابن مرزوق: محمد بن محمد التلمساني (ت781هـ)، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، تحقيق/ ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، مكتبة عالم الفكر، الجزائر، 1981م، ص417-418، ينظر كذلك/ د. محمد عيسى، المرجع السابق، ص327-328.
17. **ابن أبي زرع: أبوالحسن بن عبدالله (ت741هـ)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، تحقيق/ عبدالوهاب بن منصور، ط2، المطبعة

الملكيـة، الـرابط، 1999م، ص409، 419، 422، 446، وينظـر: ابـن خلـدون، المصـدر السابق، 260/7، وكذلك ابن مرزوق، المصدر السابق، ص387.، وينظر: **الناصري: أحمد بن خالد السلاوي (ت1315هـ)، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى**، تحقيق: محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007م، 65/2-67.

18. ابـن خلـدون، المصـدر السـابق، 536/6، وينظـر: ابـن الحـاج النميـري، المصـدر السـابق، ص164، وكذلك ابن بطوطة، المصدر السابق، ص514.
19. ابن بطوطة، المصدر السابق، ص7.
20. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، المصدر السابق، ص524، وينظر/ محد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص107.
21. ابن بطوطة، المصدر السابق، ص7.
22. المصدر نفسه، ص509.
23. المصدر نفسه والصفحة.
24. ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص221، 288.
25. ابن بطوطة، المصدر السابق، ص319.
26. **ابـن خلـدون: عبـدالرحمن (ت808هـ) مقدمـة ابـن خلـدون**، دار الشـرق العربـي، بيـروت، 2004م، ص170.
27. المصدر نفسه، ص171.
28. المصدر نفسه والصفحة.
29. الرحلة، ص6.
30. المصدر نفسه، ص5.
31. المصدر نفسه والصفحة.
32. المصدر نفسه والصفحة.
33. المصدر نفسه، ص6.
34. المصدر نفسه، ص397.
35. المصدر نفسه، ص544.
36. المصدر نفسه، ص5.
37. المصدر نفسه، ص7.
38. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، المصدر السابق، ص543.
39. هو أبويوسف يعقوب بن عبدالحق المريني، سيد بني مرين على الإطـلاق لقبـه المنصـور بـالله، تولى الإمارة سنة 656هـ، ودام حكمه حتى سنة 685هـ، وهو الذي فتح مراكش، وقطع ملك الموحدين ومحا أثره، وفتح مدينة سجلماسه، وانتصر على بني عبدالواد، وحارب الإفرنج في الأندلس عدة مرات وانتصر عليهم، وهو أول ملك من بني مرين حمي الإسلام وشتت الصلبان وغزا الروم ودوخهم وقهر ملكوهم وحاصر مدنهم، وأعز الله تعالى بـه الـدين وهو الـذي بنـى مدينة فاس الجديدة سنة 674هـ. ينظر: ابن أبـي زرع، الأنيس المطـرب، المصـدر السـابق، ص388-391، وكذلك الجزنائي، المصدر السـابق، ص43، وينظر: **الزركلـي: خيـر الـدين، الأعلام**، ط4، مط/ دار العلم للملايين، بيروت، 1969م، 282/3.
40. هو عبدالحق بن محيو بن أبـي بكر بن حمامـة بن محمد المرينـي، أبومحمد، مؤسس الدولـة المرينية في المغرب الأقصى، توفى سنة 614هـ، ينظر: ابن خلدون، العبر، المصدر السابق،

169/7، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، المصدر السابق، ص372. وينظر/ محمد عيسى، المرجع السابق، ص10-12.

41. الرحلة، المصدر السابق، ص7.
42. هو جبل طارق، وسمى أيضاً بجبل الفتح لأنه منه كان مبدأ الفتح الأكبر، وبه نزل طارق بن زياد، عند جوازه لبلاد الأندلس، فيقال له جبل طارق، وجبل الفتح، ينظر: الرحلة المصدر السابق، ص515.
43. النيف: تعني الزيادة في العدد من واحد إلى ثلاثة، ينظر: **الفيومي: أحمد بن محمد (ت770هـ)، المصباح المنير**، دار الغد الجديد، القاهرة، 2007م، ص365، وينظر: **الطاهر الزاوي، مختار القاموس**، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 1980م، ص626.
44. الرحلة، المصدر السابق، ص515.
45. المصدر نفسه، ص516.
46. المصدر نفسه، ص510.
47. المصدر نفسه، ص513.
48. ينظر: ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، 291/7، الناصري، المصدر السابق، 91/2، **الزركشي: أبي عبدالله محمد (ت932هـ) تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تحقيق/ محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، 1996م، ص95، ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص72.
49. الرحلة، المصدر السابق، ص513.
50. الناصري، المصدر السابق، 428/1، وينظر: **د. عبدالهادي التازي، لماذا عبدالمولد النبوي في الغرب الإسلامي**، مجلة دعوة الحق، العدد 277، الرباط، 1989م، ص24-25.
51. المؤنس، المصدر السابق، ص334.
52. الأوقاف: جمع وقف، والوقف في الاصطلاح هو تحبيس مال يمكن الانتفاع به مع بقاء عينه، بقطع تصرف الواقف وغيره في رقبته، يُصرف في جهة خير تقرباً إلى الله تعالى، والوقف لا يورث، ولا يباع، ولا يُوهب، ويستثمر ربح الوقف لمن وقِفَتْ عليهم، والأوقاف والأحباس هي واحد، والأحباس معنى جمع حبس شيء واحد، وهي سُنة مؤكدة عن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. للمزيد ينظر: **الطرابلسي: إبراهيم بن موسى (ت922هـ) الإسعاف في أحكام الأوقاف**، دار السعادة للطباعة، القاهرة، مكتبة لبنان، بيروت، 1985م، ص174، **البخاري: أبي عبداله محمد بن إسماعيل (ت256هـ) صحيح البخاري**، تحقيق: د. محمد البنا، دار ابن كثير، بيروت، 1993م، 2048/5.
53. الرحلة، المصدر السابق، ص513.
54. تجذر الإشارة إلى ان مصطلح (المارستان) انتشر في بلاد المغرب، بينما انتشر مصطلح (بيمارستان) في بلاد المشرق، وبيمارستان هي كلمة فارسية مركبة من كلمتين (بيمار) بمعنى مريض و(ستان) بمعنى دار أو مكان، فهي إذاً تعني (دار المرضى) ثم اختصرت في الاستعمال في الغرب الإسلامي فصارت (مارستان)، ينظر: الحموي، المصباح المنير، المصدر السابق، ص2007، وكذلك: **أحمد عيسى : البيمارستانات في الإسلام**، ط2، دار الرائد، بيروت 1981م، ص4.
55. **ابن القاضي: أحمد بن محمد (ت890هـ) جذوة الاقتباس في ذكر من حل من أعلام مدينة فاس**، مط/ دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1974م، 310/1، وينظر/ ابن أبي

زرع، الذخيرة السنية، المصدر السابق، ص91، ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص203، ابن الخطيب، مشاهدات ابن الخطيب، المصدر السابق، ص62، وينظر كذلك محمد المنوني: دور الأوقاف المغربية في التكافل الاجتماعي عبر عصر بني مرين، مجلة دعوة الحق، العدد 230، الرباط يوليو 1983م، ص214.

56. **تازا:** ويطلق عليها أيضاً تازة (بالتاء المربوطة) مدينة بالمغرب الأقصى تقع شرق مدينة فاس بنحو 119كم، وتتمتع بموقع جغرافي مهم مما جعلها منذ أقدم العصور مركزاً حربياً له خطورته ومكانته الحربية، ينظر: ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، المصدر السابق، ص182.
57. **مكناس:** ويطلق عليها أيضاً اسم (مكناسة) نسبة للقبيلة التي اختطت هذه المدينة، وتقع على مسافة 40 ميلاً إلى الغرب من فاس، واشتهرت بزراعة الزيتون ولذا سميت بمكناسة الزيتون، اهتم بها المرينيين وأنشأوا بها العديد من المرافق، ينظر: **ابن غازي أحمد بن محمد (ت919هـ) الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون**، تحقيق/ عطا أبورية وسلطان بن مليح، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2007م، ص52، وينظر ابن الخطيب، المصدر السابق، ص165.
58. **شالة/** مدينة بالمغرب الأقصى بناها الرومان بالقرب من نهر أبي رقراق على بعد ميلين من البحر وميل واحد من الرباط، وفي عصر الدولة المرينية جددوا بناءها وأداروا حولها الأسوار، وشيدوا بها زاوية فاخرة، وجامعاً ومدرسة، واتخذوها مدافناً لملوكهم، زارها الوزان سنة 915هـ، وقال: "رأيت فيها 30 قبراً لهؤلاء الملوك، انتسخت كل ما كتب عليها" وقد زار الباحث هذه المقابر سنة 2010م وما زالت بقايا قبورهم على حالها، ينظر/ الوزان: حسن بن محمد (ت957هـ) وصف إفريقيا، ط2، تحقيق/ محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م، 203/1.
59. **سلا/** مدينة بالمغرب الأقصى موازية لوادي أبي رقراق الذي يفصلها عن مدينة الرباط، نالت عناية بني مرين فسوروها، وأنشأوا بها الكثير من المرافق العامة. ينظر: ياقوت الحموي: شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت (ت626هـ) معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1995م، 231/10، وينظر ابن الخطيب، معيار الاختيار، المصدر السابق، ص152؛ الوزان، المصدر السابق، 207/1.
60. **آسفي:** مدينة بالمغرب الأقصى على ساحل المحيط، تبعد عن الدار البيضاء مسافة 252كم، وبها مرس بحري هو آخر ما تبلغه المراكب من عند الأندلس إلى ناحية القبلة، ينظر: الحميري: محمد بن عبدالمنعم (ت727هـ) الروض المعطار في خبر الأقطار، ط2، تحقيق/ د. إحسان عباس، مط، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، 1980م، ص57. وكذلك ينظر ابن الخطيب، المصدر السابق، ص160.
61. **الرباط/** مدينة بالمغرب الأقصى أسسها الخليفة الموحدي يعقوب المنصور (554-594هـ) وسماها (رباط الفتح) وزودها بالمساجد والمدارس وغيرها، ينظر: المراكشي، المصدر السابق، ص222، الناصري، المصدر السابق، 201/1.
62. وصف أفريقيا، المصدر السابق، 227/1.
63. ابن مرزوق، المصدر السابق، ص122.
64. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، المصدر السابق، ص389.

65. **المراكشي:** عبدالواحد (ت647هـ) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق/ محمد زينهم، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، القاهرة، 1994م، ص237.
66. الرحلة، المصدر السابق، ص513.
67. يُطلق على هذه المدرسة أيضاً المدرسة البوعنانية نسبة إلى مؤسسها أبي عنان المريني باني هذه المدرسة أيضاً المدرسة البوعنانية نسبة إلى مؤسسها أبي عنان المريني باني هذه المدرسة، وتجدر الإشارة إلى ان الباحث قد زار هذه المدرسة بمدينة فاس سنة 2010م، وما زالت هذه المدرسة قائمة إلى الآن، وتؤدي دورها التعليمي والديني، وهي بحق تحفة معمارية على ما يذكره ابن بطوطة، وبها عدة حجرات متسعة للدروس، وبها حجرات لمبيت الطلبة وساحة واسعة يتخللها جدول ماء جاري، وبها مسجد تتوسطهُ لوحة رخامية مسجل عليها الأوقاف التي وقفها عليها السلطان أبي عنان، والمدرسة مزخرفة بالجص، وبها كتابات تلفها بالخط المغربي.
68. الرحلة، المصدر السابق، ص514.
69. هو الملك الناصر محمد بن المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي، أبوالفتوح، ويُعرف بالألفي؛ لأن الملك الصالح اشتراه بألف دينار ذهباً، من كبار ملوك الدولة القلاوونية، قتل الظاهر بيبرس وامتلك قيادة الدولة فخطب له بمصر وطرابلس الغرب والشام والحجاز والعراق وغيرها واستمر 32 سنة في الحكم، ينظر: ابن بطوطة الرحلة ص30، وينظر الزركلي، الأعلام، المرجع السابق، 11/7.
70. الرحلة، المصدر السابق، ص30.
71. المصدر نفسه، ص514.
72. **المقرّي:** أحمد بن محمد (ت1041هـ) أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق/ مصطفى الأبياري، وعبدالحفيظ شلبي، مطبعة المحمدية، الرباط، 1939م، 196/3، وكذلك لنفس المؤلف: نفخ الطيب من **غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1986م، 290/3، وينظر/ محمد المنوني: منشآت مرينية بضاحية فاس الجديدة، مجلة المناهل، العدد 11، السنة السادسة، 1979م، الرباط، ص251.
73. نسبة إلى مؤسسها أبي عنان الملقب بالمتوكل.
74. **ابن الأحمر:إسماعيل بن يوسف (ت807هـ) روضة النسرين في دولة بني مرين**، تحقيق/ عبدالوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1962م، ص27.
75. فيض العُباب، المصدر السابق، ص213.
76. **السبتي: محمد بن القاسم (كان حياً سنة 825هـ) اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار**، تحقيق/ عبدالوهاب بن منصور، ط/2، المطبعة الملكية، الرباط، 1983م، ص32.
77. ينظر: ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص202، ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص152.
78. ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص202، 171.
79. **محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين**، ط3، مط، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2000م، ص66-67.
80. المسند الصحيح الحسن، المصدر السابق، ص413.
81. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص91.

82. نفح الطيب، المصدر السابق، 290/3، وكذلك أزهار الرياض، المصدر السابق، 196/3.
83. الرحلة، المصدر السابق، ص511.
84. المصدر نفسه، ص511-512.
85. المصدر نفسه، ص512.
86. **بجاية**: مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب، أول من بناها (الناصر بن علناس بن حماد) سنة 475هـ، وتقع على جبل شاهق، وفي عصر ابن بطوطة تكون واجهة للمملكة الحفصية، ينظر: الحميري، المصدر السابق، ص80؛ ياقوت الحموي، المصدر السابق، 495/1.
87. لما استقر الأمر بتونس لأبي يحيى أبي بكر الحفصي عين ولده أبا زكريا والياً على بجاية، ونظراً لصغر سنه فقد عين لمساعدته أحد كبار الموظفين بصفة مدير سياسي هو محمد بن سيد الناس، واستأثر بالسلطة، وقتل في نهاية أمره. للمزيد ينظر: **ابن الشماع: محمد بن أحمد (ت869هـ) الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق: د. الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس، ص87-88، وكذلك: **روبار برنشفيك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي**، تعريب: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988م، 182/1-183.
88. **الدولة الحفصية:** هي إحدى الدول الثلاث التي استقلت عن الدولة الدولة الموحدية سنة 625هـ، واتخذت من مدينة تونس عاصمة لها، وقد كان بنو حفص في بداية أمرهم نواباً للموحدين على ولاية إفريقية. للمزيد ينظر: **السراج: محمد بن محمد (ت 1104هـ) الحُلل السندسية في الأخبار التونسية**، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1986م، 131/2، ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، 270/6، ابن الشماع، المصدر السابق، ص48.
89. ينظر: ابن خلدون، المصدر السابق، 269/7، الزركشي، المصدر السابق، ص83 ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص146، الناصري، المصدر السابق، 77/2، محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص117-118.
90. **ابن قنفذ: أحمد بن الحسن (ت801هـ) الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تحقيق: محمد الشادلي وعبدالمجيد تركي، الدار التونسية للنشر، 1968م، ص170، وينظر كذلك: الزركشي، المصدر السابق، ص84، ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص147، ابن خلدون، المصدر السابق، 274/7.
91. تذكر المصادر التاريخية أن القبائل العربية بإفريقية اتفقوا على تشكيل حكومة جديدة لمقاومة المرينيين، وأختاروا أحد الموحدين من حفدة بني عبدالمؤمن سلطاناً عليهم، المسمى بأبي دبوس واسمه أحمد بن عثمان بن أبي دبوس، الذي كان مستتراً في بلدة توزر. للمزيد ينظر: ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص169، الناصري، المصدر السابق، 78/2، محمد عيسى، المرجع السابع، ص121.
92. ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص169.
93. ينظر: ابن خلدون، المصدر السابق، 276/7، ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص169.
94. الرحلة، المصدر السابق، ص507.
95. المصدر نفسه، ص508.

96. للمزيد ينظر: ابن خلدون، المصدر السابق، 809/6، ابن قنفد، المصدر السابق، ص169، الزركشي، المصدر السابق، ص81، ابن الشماع، المصدر السابق، ص92، 94، 97، ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص168، برنشفيك، المرجع السابق، 200/1.
97. ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص170.
98. ابن الشماع، المصدر السابق، ص101-102.
99. المصدر نفسه والصفحة.
100. المصدر نفسه، ص97، وينظر برنشفيك، المرجع السابق، 199/1.
101. المصدر نفسه، ص98.
102. ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص169، وينظر: محمد عيسى، المرجع السابق، ص122.
103. الزركشي، المصدر السابق، ص85.
104. المصدر نفسه، ص86، وينظر: ابن الشماع، المصدر السابق، ص98.
105. ابن قنفذ، المصدر السابق، ص71.
106. ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص169.
107. ينظر: الزركشي، المصدر السابق، ص86، ابن قنفذ، المصدر السابق، ص172-173.
108. الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، المصدر السابق، ص98-99.
109. الزركشي، المصدر السابق، ص89.
110. ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص169.
111. ابن الشماع، المصدر السابق، ص99.
112. **بُونة**: يُطلق عليها أيضاً اسم (عنابة) وهي مدينة قديمة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط بالجزائر، وسميت عنابة لكثرة العنب بها. ينظر: الحميري، المصدر السابق، ص115، الوزان، المصدر السابق، 61/2.
113. تاريخ الدولتين، المصدر السابق، ص88-89.
114. ابن الشماع، المصدر السابق، ص99.
115. الزركشي، المصدر السابق، ص85.
116. ابن خلدون، المصدر السابق، 285/7، وينظر الناصر، المصدر السابق، 63/2.
117. الناصري، المصدر السابق، 63/2.
118. المصدر نفسه والجزء والصفحة.
119. ينظر: ابن خلدون، المصدر السابق، 287/7، الزركشي، المصدر السابق، ص90، الناصري، المصدر السابق، 64/2.
120. ينظر: الناصري، المصدر السابق، 63/2، ابن الشماع المصدر السابق، ص99، الزركشي، المصدر السابق، ص90، محمد عيسى، المرجع السابق، ص124.
121. الناصري، المصدر السابق، 64/2.